مادّة: الأدب الصوفي الجزائري **السنة الثالثة ليسانس/ أدب جزائري**

الدرس رقم05 **أستاذ المادّة: بن زياني**

موضوعات الأدب الصوفي: المدائح النبوية

1) مفهوم المديح النبوي:

المدائح النبوية من فنون الشعر التي أذاعها التصوف؛ "فهي لون من التعبير عن العواطف الدينية، وباب من الأدب الرفيع: لأنّها لا تصدر إلا عن قلوب مفعمة بالصدق والإخلاص، وأكثر المدائح النبوية قيلت بعد وفاة الرسول؛ وما يُقال بعد الوفاة يسمى رثاء، ولكنّه في الرسول يسمّى مدحًا، كأنهم لحظوا أن الرسول صلى الله عليه وسلم موصول الحياة، وأنهم يخاطبونه كما يخاطبون الأحياء".

والمديح النبوي من أرقى الفنون الشعرية ذلك أن مضمونه روحي عاطفي صادق،وقد كان ولا يزال"فنا أصيلا من فنون الشعر الديني،والمديح النبوي يتعلق بشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم، فشخصيته اجتذبت قلوب المسلمين وغيرهم ليمدحوه لعظمها وسُمُوِّها " فكان بحق صورة عن الأدب الرفيع البعيد عن كل رياء،" فهو شعر ديني ارتبط وتعلق بصاحب الرسالة المثل الإنساني الأعلى، والرسول صلى الله عليه وسلم شخصية إنسانية فريدة، استوجبت المدح وإشادة بفضائلها للاقتداء بها، ولتصفو النفس بتمليها، وبذلك كان هذا الفن الشعري صادقا نابعا من إيمان راسخ بالنبي "، فالمضمون مميز "صادر عن شخصية الممدوح السامية والمشتملة على خصائص الإنسان الكامل."

ويعدّ المديح النبوّي من المواضيع الشعرية الدينية التّي تعنى بالعاطفة والأحاسيس الصادقة،" بحبّ النبّي صلّى الله عليه وسلّم وبتعداد صفاته الخلفية وإظهار الشوق لرؤيته وزيارة قبره وروضته الشريفة، كما يهتم هذا الشعر بذكر معجزاته المادّية والمعنوية

والإشادة بغزواته وصفاته المثلى والإكثار من الصّلاة والسّلام عليه تقديرًا وتعظيمًا، وطلب الأجر من الله عز وجلّ بالثناء عليه صلّى الله عليه وسلّم".

و" المولديات هي المدائح التي تلقى ليلة المولد النبوي، وتحتوي على مدح الرسول صلى لله عليه وسلم، ومدح الأمير الذي ينتظم حفل المولد بأمره أو بحضوره" ولها مظهر ديني، كما لها أثر من جانب آخر في إثراء الوسط الأدبي، نتيجة لتباري الشعراء وتنافسهم في نظم القصائد الحاملة للمشاعر الدينية، والمعبرة عن الفضائل المحمدية.

إنّ المديح النبوي والمولديات ارتبطت بشخص الرسول الكريم، بدافع ديني، واعتبارا لكون الشعر الصوفي شعرا دينيا؛ فكيف عبر الصوفية عن شخصية الرسول الكريم ؟

2) علاقة المديح النبوي بالتصوف:

لقد مدح النبي صلى لله عليه وسلم الشاعر الصوفي وغيره، لأن فن المديح النبوي "مرتبط بمضمون سام صادر عن شخصية الممدوح السامية والمشتملة على خصائص الإنسان الكامل"، من هذا المنطق يكون المديح النبوي مجالا ينقل الشاعر إلى عوالم مثالية، فحدث نوع من التداخل بين الشعر الصوفي وشعر المديح النبوي على اعتبار أن الصوفية في تعبيرهم عن مواجيدهم وأحوالهم، في جو ديني ذكروا النبي الكريم، فوصفوه بالقطب الأكبر، والغوث، ومنبع الأسرار وغير ذلك من العبارات التي انسجمت مع مصطلحات صوفية أخرى لتجعل نص المديح النبوي يعبق بالصوفية، وبكل ما فيها من روحية وجدانية، ومن هنا تغلغل الرمز في المديح النبوي وعرِف لدى الصوفية ما يسمى (بالحقيقة المحمدية)، وهي" فكرة صوفية تربط بين الحقيقة المحمدية وبين خلق الوجود... فالرسول في وجوده أسبق من وجود العالم ومن خلقة آدم قبل أن يتجسد، وأن وجود العالم وظهور آدم إنّما هما من علامات الرسول ومن آياته، وهي نظرة صوفية بحتة تجعل الرسول مدار الكون ومحور الذي بدونه لا يستقيم العالم، وأنّه سابق للوجود في نشأته، و لولاه لم يخلق هذا العالم."

وقد أسهم التصوف في انتشار المدائح النبوية، إذ كلما تغنى الصوفية بالذات الإلهية، مدحوا الرسول الكريم، بل قد أكثروا من مدحه صلى الله عليه وسلم في أشعارهم."

ومن هنا تتضح تلك الصلة الوثيقة بين المديح النبوي والتصوف، بحيث أخذت الكثير من القصائد في المديح النبوي الصبغة الصوفية، وهو أمر طبيعي،إذ نجد الكثير ممن عُرِفُوا بمدح الرسول متصوفة، والعكس صحيح حيث اشتملت أشعار الصوفية على الكثير من الشعر في مدح المصطفى عليه الصلاة والسلام.

ومن بين النماذج الشعرية التي تكشف العلاقة بين المديح النبوي والتصوف، قول ابن الخلوف القسنطيني أحد أبرز شعراء المديح النبوي في الجزائر القرن في التاسع الهجري وديوانه" جني الجنتين مدح خير الفرقتين ":

حَبيبُ الحقِّ خيرُ الخلقِ طهَ إمَامَ الرُّسُلِ دَرى الدَرَارِي

هِلاَلُ الكَوْنِ مِصْبَاحُ الدَيَاجِي صَبَاحُ الأفْق، شمسُ ضُحَى النَّهَارِ

رِيَاضُ الأمن، مفتاحُ المَعَالِي غَمَامُ الجودِ، كَنْزُ الادْخَارِ

وبشيء من التأمل نستشعر نفحات صوفية، فالرسول الكريم هو "درى الدراري"، صباح الأفق"، "مفتاح المعالي"، و"غمام الجود"، وكلها مصطلحات توحي بسطوع الجمال المحمدي على الكون، فهو مدار الكون، والشاعر وإن" لم يكن صوفيا، فإنّه قد اتكأ على المعجم الصوفي لتوظيف مصطلحاتهم للتعبير عن بعض أفكاره."

وهكذا فالزهد، والتصوف، والمديح النبوي شكلوا معا فسيفساء أدبية عبرت بصدق عن الصبغة الدينية التي ميّزت الحياة السياسية، والاجتماعية والأدبية في الجزائر.

3) مضامين المدائح النبوية في الجزائر

تنوعت صور مدح المصطفى عليه الصلاة والسلام من شاعر إلى آخر؛ و من خلال هذه الأنواع بث الشاعر الجزائري – ومنذ القدم– مشاعر حبّه الفياض للرسول الكريم، وقد

خالط حب النبّي حب البقاع المقدسة والشوق لزيارتها مع شوق كبير لزيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام هذا النور الساطع على الكون.

وموضوعات شعر المديح النبوي عديدة، تدور في فلك حبّ صاحب الرسالة المحمدية، وتتوزع عبر أنوع المدائح النبوية التي هي "المدائح العامة الصرفة، الشعر في مدح آل البيت شعر التشوق، المولديات والبديعيات "، فأمّا المدائح الخاصة الصرفة، فتضم المدائح النبوية التي تتطرق لمآثر الرسول صلى الله عليه وسلم، وتستقي من سيرته العطرة ما عبر عن أحواله، وفضائله، وأخلاقه ومعجزاته، وكلّ ما يتعلق به من حسن خُلُقي وخَلْقي، في حين قصيدة التشوق فهي تشير إلى شوق الشاعر وتلهفه لزيارة قبر النبي، والبقاع المقدسة، والمولديات نوع آخر من المديح النبوي مرتبطة بإحياء ليلة المولد النبوي الشريف وكذا البديعيات التي هي قصائد طويلة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وقلما تمدح غيره، يتضمن كل بيت فيها لون من ألوان البديع.

ومن بين شعراء المديح نذكر على سبيل التمثيل: **شمس الدين محمد بن عفيف الدين التلمساني**، وله في مدح الرسول صلى الله عليه وسلّم هذه القصيدة التي استهلها بذكر موطنه عليه الصلاة والسلام، ليسترسل في إظهار حبه لهذه الأرض و حبّه وشوقه للهادي البشير وصحبه، ثم يشرع مدحه ليطلب شفاعته مقرا بذنوبه، هذا بعد أن يُبيّن مكانته صلّى الله عليه وسلم عند رب العزة، يقول فيها:

أرضُ الأحبةِ من سَفْحٍ ومن كَثَبِ سَقَاكِ مُنْهَمِرُ الأَنْوَارِ من كَثَبِ

ولاَ عَدَتْ أَهْلَكَ النَّائِين من نفسِ الصِبَا تحية عاني القلبِ مُكْتَئِبِ

لي مِن ذُنوبي ذَنْب وَافرُ فَعَسى شَفَاعةٌ مِنْكَ تُنْجِي من اللَّهَبِ

هذه قصيدة – من البحر البسيط – تنساب رقيقة عذبة وجمعت بين شوق للقاء الأحبة وأرض الأحبة – الحجاز – ويأتي صلب الموضوع ليقولها صراحة – تربية الهادي الشفيع – ليسترسل في مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم، فهو أشرف الخلق، وموطنه أطيب

أرض، ليقر أخيرا بذنوبه طالبا شفاعته صلّى الله عليه وسلم.

ومن قصيدة **للثغري التلمساني** نقتطف أبياتا تسمح لنا بتتبع المضامين، وقد قيلت ليلة مولد النبي صلى الله عليه وسلم سنة 771هـ، ممّا جاء فيها من بحر البسيط:

أَقْصر فإنّ نَدِيرَ الشَّيْبِ وَافَانِي وأنْكَرتْنِي الغَوَانِي بَعْدَ عرفَانِ

وقَدْ تَمَادَيْتُ فِي غَيٍ بِلاَ رَشَدِ والنَّفْسُ تَأْمُرُنِي والشَّيْبُ يَنْهَانِي

فالشاعر يستهل قصيدته بالندم على ما فات، ثمّ يواصلُ في تقديم دعوة إلى التوبة وقهر النفس.

ويقول العلامة **لسان الدين بن الخطيب** في مدح الرسول الكريم:

يَا مُصْطَفى من قبل نَشأةِ آدمَ والكونُ لَمْ تُفْتَحْ لَهُ أَغْلاَقُ

أَيَرُومُ مَخْلُوقٌ ثَنَاءِكَ بَعْدَمَا أَثْنَى عَلَى أَخْلاَقِكَ الخَلاَّقُ

في هذين البيتين مسحة صوفية، خاصة في البيت الأول، فمن قبل نشأة آدم، الكون لو يفتح أغلافه إلاّ بمجيء سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وبالتالي الرسول الكريم هو سبب هذا الوجود، ولولاه لما كان لهذا الوجود وجود، فهو ذلك النور الذي أنار هذا الكون، إنّه نور سيد الخلق جميعا، وقد أثنى على أخلاقه الحميدة خالق الكون سبحانه وتعالى.

ويَذْكُرُ الشاعر **ابن الخلوف القسنطيني** في هذه الأبيات من ديوانه(جني الجنتين في مدح خير الفريقين)، بعض فضائل ومعجزات الرسول صلى الله عليه وسلّم، في قوله:

وحَنَ الجِذْعُ من شَوْقٍ إليهِ كمَا حَنَ الغَرِيبُ إلى الدِّيارِ

وَوَقَتْهُ الغمَامَة حَرَّ قيظِ وجَاءَتْهُ بِأَمْيَاهٍ غِزَارِ

وشَقَّ لأجْلِهِ بَدْرُ الدياَجِي كَمَا ردتْ لَهُ شمسُ النَّهَارِ

وفي ختام القصيدة المدحية، يتجه الشاعر الصوفي إلى طلب الشفاعة من الرسول الكريم، والصلاة والسّلام عليه، فيقول:

فَجدْ لِي بالشفاعةِ مَرْجَى لِدَفْعِ مَلَمَةٍ، أو أَخْذِ ثَاري

وصلّ على نبيكَ ما تثَنَّتْ غُصُون هاَجهَا صَوْتُ الهزَارِ

وبَلِغْ آله أزْكَى صلاة تُواصِلُ في رَوَاحٍ وابتكارِ

خلاصة: لقد تنوعت صور مدح المصطفى عليه الصلاة والسلام من شاعر إلى آخر، ذلك أنّ لصور مدح الرسول الكريم أنواع عديدة، ومن هذه أنواع بث الشاعر الصوفي الجزائري – ومنذ القدم– مشاعر حبّه الفياض للرسول الكريم، وقد خالط حب النبي الشوق لزيارة البقاع المقدسة وشوق كبير لزيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام ذا النور الساطع على الكون، ويذكر أوصاف وأخلاقه وفضله، فهو الهادي الداعي إلى الرشد والسعادة في الدنيا والآخرة، وهنا تظهر ببعض أبيات نفحات للتصوف، حيث ينجلي الحبّ المحمدي والحقيقة المحمدية في بعض الألفاظ والمصطلحات والرموز الصوفية.